أسباب الحرب

في

رأي العالمين "انشتاين" و "فرويد"

ما هي دواعي الحرب ؟ وهل يمكن استئصال أسبابها بحيث يعيش البشر اخوانا متحابين ؟ هـذا ما يفكر فيه الكثيرون في هـذه الظروف الخطيرة القاسية التي نعيشها . وقد راينا ان تنشر رسالتين كتبهما عالمان شهيران منذ سنة ١٩٣٢ في هذا الموضوع مع التمهيد الذي ورد في مجلة « حقائق » الصادرة بباريس (عدد ١٤٧) الفكر

فيما يلي تنشر نص رسالتين الاولى من « البير اينشتاين » والثانية جوابا عليها من « سيكموند فرويد » وهاتان الرسالتان مؤرختان بسنة ١٩٣٢ - اي في مدخل الربع الثاني من هذا القرن . ذلك الربع الذي شاهد صعود نجم « هتلر » ثم افوله مع تدهور اوروبا جمعاء وميلاد « السلاح المطلق » الفتاك الذي يملكه الطرفان وكلاهما يرتعش فزعا من استعماله .

ومن خلال اسطر الرسالتين يتراءى للقارىء ما كان يفكر ويتوقع رجلان من عباقرة رجال هذا العالم وما هي الوسائل الناجعة في رايهما لاتقاء الفاجعة الكبرى .

فالاول يكتفي بوضع السؤال في ميدان لا يكون علمه فيه اكثر من علم رجل الدهماء والاخر يجيب بدقة فكره المعهودة .

هذا يقول بوجوب احداث سلطة قانونية وعدلية تحل محل السيادة الفردية للامم وتكسبها رصانة وتعقلا ويتساءل لماذا لم يكن للعقل قوة فعالة ولماذا لا تنقاد الامم للطبقة الحاكمة وباي وسيلة تقهر الغرائز وكيف يتسنى قطع دابر « الحاجة الى الحقد » التي تؤول الى نفسية جماعية .

والاخر يعرض على المجهر سلمية « أينشتاين » ويحللها دون اي لبس ولا

تضليل ويقول : كلا ان القوة ليست نقيضة القانون وما القانون في الحقيقة الاصورة محوّلة من العنف الذي لا مناص منه . وعنف الفرد لا يقاوم الا باتحاد ضحاياه الذين يضعون كاساس لمجتمعهم الصالح ، والشعور بالصالح يقضي بتحويل السلطة لوحدة اوسع لكن جمعية الامم آنذاك لم تكن لها قوة في مستواها فلم تفض لتمازج خلاق لمجتمع . ويؤكد فرويد ان دعوى القضاء على الميول الفتاكة عند البشر عمل بدون جدوى لكن لنا ان نتساءل هل من الممكن توجيه تلك الميول نحو ضرب من التعبير غير الحرب .

هنا يجيب فرويد بجواب مبهت . فهو من جهة يجيب دون خجل بوجوب اثارة عاطفة الحب عند البشر ويلتجي من طرف اخر الى وجوب فرض السلطة على ان تكون هذه السلطة بين يدي زمرة منتقاة من رؤساء ومفكرين سامين ياخذون بزمام الكتل والشعوب .

وهذه وسائل لا تتحقق الا بعد طول مدى ! لكن لا تقبل فكرة الحرب دون كراهية وهي مع ذلك تبني عن « اساس حيوي » وآية ذلك ان التطور الثقافي المخالف للطبيعة من عدة نواح يجعل بعض رجال الساعة يشعرون حيال الحرب بغير شعور الترفع الادبي بل بتنافر جسماني .

وما هي السبيل لاكثار هذا النوع من البشر ؟

هنا يضع فرويد رجاءه البعيد في مفعول هذين العنصرين وهما نمو الثقافة والخوف من نتائج الحرب المطلقة .

اما « اينشتاين » فانه لا يرى سوى مخلص ذي معقولية قاهرة يتمثل في حكومة عالمية ويرى الخطر في ابقاء طبقة حاكمة وبائعي مدافع ما سكين بين مخالبهم الصحافة والمدرسة والمنظمات الدينية وبذلك يتحكمون في توجيه الكتل ويرمون بهم نحو الحقد الذي تنشأ عنه الحرب . لكن الغرب اليوم لا تحكمه طبقة بل ان الاوامر التي تسطر التاريخ الواقعي والرأي العام الذي يوحي بها انما هي صادرة عن الدولة والاحزاب والشؤون التجارية واحيانا عن الكنائس لا عن تواطئهم بل نتيجة تنافرهم .

وشرح فرويد لشروط كل سياسة واقعية ينحصر في ان التناحر التقليدي بين القوة والقانون ما هو الا تطاحن بين ضربين من العنف .

ولم تمر اربع سنوات على تبادل الرسالتين حتى عمد هتلر لاحتلال مقاطعة «ريتانية» فيصيح باريس رئيس وزارتها: «سوف نجابه قانون القوة بقوة القانون» واذا ما اتخذنا تعبير فرويد لشرح هذه العبارة قلنا هذا تصريح يرمي الى مقابلة عنف الفرد بالعنف الناشيء عن تكتل واتحاد ضحاياه وبما انه ليس هناك وحدة فمعنى ذلك اننا نقابل مصفحات هتلر بصحيفة ورق خطت عليها بلاغة رائعة .

ونتوصل هكذا الى ما اتفق عليه الرجلان سلطة موحدة عليا فوق سلطة الشعوب ذات السيادة ـ وكلاهما يخشى عدم توفر القوة الكافية عند المشروع ـ وكيف يمكن ارغام الشعوب والجبابرة والطبقات الحاكمة على الخضوع للقانون المقرر ؟

فبينما يرجو العالم الفيزيائي انتصاب سلطة ذات صبغة ادبية نرى الباحث النفساني يامل الكثير من الفزع الذي توحي به الاسلحة الفيزيائية ويقول : « ان حرب الغد بمفعول تحسن آلات الفتك معناها فناء احد الطرفين وربما كليهما. » وعن ذلك تنشأ فكرة السلام الابدي يفرضه سلاح له من القوة ما يكفي لجعل السلطة المركزية مطاعة .

نحن في سنة ١٩٣٢ « واينشتاين » يأسف لتجرد الدولة العليا التي يرتضيها من قوة تناسب مقامها وهو يفتش عن تلك القوة ولا يجد شيئا واليه يرسل فرويد (بتنبؤاته)، اليه وحده دون معاصريه وهو الذي كانت اكتشافاته سببا تحت طي السر والخفاء لتفرقع قاذفة « هيروشيما » ثلاثة عشر سنة بعد تبادل الرسالتين

تلك هي المأساة والسخرية التي ينم عليها تحاور عبقريتين احداهما تبصر المستقبل بعين جلية والثانية تجهل انها تعني بخطابها الرجل الوحيد الذي يملك السر دون ان يعلم ذلك .

رسالة "انشتاين"

اني سعيد اذ ان الدعوة التي وجهتها لي جمعية الامم ومعهدها الاممي للتعاون الثقافي بباريس لاتبادل الراي بحرية مع شخصية يقع عليها اختياري في موضوع اعينه بنفسي قد اتاحت لي فرصة ثمينة للتخاطب معكم في شأن قضية تبدو لي في الاونة الحاضرة كأهم ما يذكر في ميدان الحضارة وهي هذه : هل هناك سبيل لانقاذ البشرية من خطر الحرب .

وقد يسود اليوم الاتفاق بصفة عامة على ان تقدم « التكنيك » جعل تلك القضية حيوية حقا بالنسبة للبشرية المتحضرة ، ومع ذلك فان الجهود الجاهدة المبذولة لحل تلك المشكلة قد خابت لحد الآن خيبة مريعة .

وانا اظن ان من بين الذين تشغل بالهم هذه المشكلة عمليا ومهنيا جماعة ترغب - رغبة منشؤها شعور بالعجز - في استشارة من وضعوا بحكم مباشرتهم العادية للعلوم على مسافة ذات حظ بالنسبة لكافة مشاكل الحياة .

اما فيما يتعلق بي فإن اتجاه تفكيري العادي ليس من الاتجاهات التي تلقي اضواء على اغوار العزيمة والشعور البشري ، ولذا فان في تبادل الآراء التي ابدأ بعرضها هنا لم أنو من عرض المشكلة وتمكينكم هكذا - مع الاعراض عن محاولات الأخرين لايجاد الحلول - من فرصة اثارة المسالة بفضل ما لكم من المعرفة العميقة باسرار الحياة الغريزية عند الانسان .

وانا واثق انكم - من دون التعرض الى السياسة - اهل للاشارة الى الوسائل التربوية التي من شأنها ازالة الحواجز النفسية التي قد يتصورها من ليس له خبرة بالموضوع لكنه لا يقدر على تقدير تناسباتها وتغيراتها .

ويلوح لي - انا المتحرر من المزاعم القومية - ان ظاهر المشكلة اي طريقة العمل بسيط ، اعني ان الدول تضع سلطة تشريعية قضائية لتخفيف وطأة الخلافات كل الخلافات ، التي قد تنجم بينها وهي تلتزم بالخضوع للقوانين التي تسنها السلطة التشريعية وان تلجأ للمحكمة عند نشوب كل خلاف وان ترضخ دون

احترازٍ لاحكامه وان تنفذ لضمان التطبيق كل الاجراءات التي تراها المحكمة لازمة . وهنا المس الصعوبة الاولى وهي ان المحكمة مؤسسة بشرية قد تتأثر بعوامل الالحاحات غير القانونية بقدر ما تتضاءل لديها القوة على تنفيذ احكامها وهناك امر واقع لا بد من اعتباره هو ان الحق والقوة مرتبطان اشد الارتباط وان الاحكام الصادرة عن منظمة عدلية تقرب من المثل الاعلى لعدالة المجتمع الذي باسمه ولصالحه تصدر الاحكام . وذلك بقدر ما يتاتى لذلك المجتمع ان يجمع القوى اللازمة لتحقيق احترام المثل الاعلى لهذه العدالة . لكننا اليوم ابعد ماتكون عن التمتع بمنظمة فوق دولية قادرة على منح محكمتها سلطة نافذة وضمان الامتثال المطلق لتنفيذ احكامها .

واول مبدإ يستبد بخاطري هو ان الطريق التي تؤدي الى السلم العالمية تفرض على الدول التخلي بدون قيد ولا شرط عن جزء من حرية عملها وبعبارة اخرى عن سيادتها ، ومما لا شك فيه انه ليس بوسعنا ان نجد طريقا اخرى تؤدي الى ذلك الامن .

ونظرة بسيطة الى فشل الجهود، المخلصة ولا شك، التي بذلت طيلة العشرة سنين الاخيرة تسمح لكل انسان بان يدرك ان قوى نفسانية جبارة ما تزال عاملة على اعاقة تلك الجهود ، والبعض من تلك القوى يسهل ادراكها .

ان التهافت على النفوذ الذي يبدو من الطبقة السائدة في اية دولة يعطل تحديد حقوقها في السيادة ، وهذا التهافت السياسي العارم كثيرا ما يجد غذاء له في ادعاءات طبقة اخرى يتجسم مجهودها الاقتصادي في شكل مادي صرف . واذ اقول هذا فانا افكر خاصة في تلك الشرذمة التي نجدها في كل شعب ، والتي هي ثابتة العزم على قلتها ، لا تقيم وزنا للتجارب ولا للعوامل الاجتماعية ، المتركبة من أفراد لا يرون في الحرب ولا في صنع الاسلحة والاتجار بها سوى فرصة سانحة لاستدرار فوائد وارباح شخصية وتوسيع نطاق نفوذهم الشخصي .

الا ان تلك الملاحظة البسيطة ليست سوى خطوة اولى في سبيل معرفة الملابسات ؛ فيتبادر اذن للذهن سؤال هو : كيف يتيسر لتلك الاقلية ان تستعبد لمطامعها السواد الاعظم من الشعب الذي لا يجني من الحرب الا الآلام والتفقير؟ واني عندما اتكلم عن السواد الاعظم لا انوي اقصاء اولئك الجنود - على درجاتهم - الذين اتخذوا من الحرب حرفة ، واثقين من انهم يعملون للدفاع عن اثمن خيرات شعبهم ومعتقدين ان احسن وسيلة للدفاع تكون احيانا المبادرة بالهجوم

وهاك اول جواب : يتأكد في نظري ان قادة الساعة - وهم اقلية - تتصرف في المدرسة والصحافة وفي غالب الاحيان المنظمات الدينية ، وبفضل تلك الوسائل تفرض هيمنتها وتوجه عاطفة السواد الاعظم فتجعل منه اداتها العمياء .

لكن هذا الجواب لا يفي بعد بتسلسل العوامل الماثلة لان هناك سؤالا آخر يعترضنا وهو هذا : كيف يمكن للسواد الاعظم ان يتاثر بالوسائل التي ذكرناها فيتاجج حماسا الى حد الجنون والتضحية ؟ لا ارى لذلك جوابا سوى ان في النفس البشرية حاجة ملحة الى الحقد والتدمير تبقى كامنة في الظروف العادية ولا تظهر الا في الظروف غير العادية ، وقد تثار بسهولة فتتعفن وتؤول الى نفسية جماعية مرضية ، وهذا هو - على ما يظهر - المشكل الجوهري والسر الدفين لمجموعة تلك العوامل وهذه هي النقطة التي لا يمكن لسوى الخبير الماهر بسر الغرائز البشرية ان يلقي عليها ضوءا .

وهكذا نصل الى سؤال آخر : هل يمكن توجيه النمو البشري بحيث يصبح المرء اكثر مناعة ازاء عقد الحقد والتدمير ؟ وهيهات ان افكر - عند كتابة هذا - في الاميين فحسب ، بل قد جربت بنفسي ان من يوصفون « بالذكاء » هم اكثر الناس عرضة للايحاءات الجماعية الوخيمة . ذلك انهم لم يتعودوا الورود من معين التجربة الحية بل هم على عكس ذلك ينخدعون انخداعا بالورق المطبوع .

وفي الختام اضيف اني لم اتعرض الى الآن لسوى الحرب الاممية او بعبارة اخرى لما يدعى بالنزعات العالمية ، ولست اجهل ان سجية العداء البشري تبرز ايضا بمظاهر اخرى وفي ظروف اخرى - خذ لك مثلا من الحرب الاهلية الناجمة قديما عن اسباب دينية والناجمة اليوم عن اسباب اجتماعية ، او من اضطهاد الاقليات القومية . . . - انما قصدت ادهى النزعات ، هذا الذي يندلع بين المجتمعات البشرية اذ بمعالجتنا لهذا الصنف نتوصل بسهولة اكبر الى معرفة وسائل اجتناب الفتن المسلحة .

وأنا أعلم أنكم أجبتم في مصنفاتكم - مباشرة او بصورة غير مباشرة - على كل هذه الاسئلة المتعلقة بالمشكل الذي نحن بصدد معالجته والذي يلح علينا إلحاحا . إلا أنه لا يخلو من الفائدة ان تتناولوا بالبحث مسألة إقرار السلام في العالم على ضوء بحوثكم الحديثة ، فقد يكون هذا الدرس مدعاة لجهود مثمرة في هذا الباب . مع خالص الود (١)

حرر ببوتسدام في ٣٠ جويلية ١٩٣٢

---

(١) سننشر رسالة « فرويد » في عدد مقبل